الحوار الدّيني عند محمد الطالبي وأسس التعايش بين الأديان

The Religious Dialogue of Muhammad Al-Talbi and the Foundations of Interreligious Coexistence

ط د بوبكري مصطفى [1*]،   أ د قواسمي مراد [2]

[1] جامعة عبد الحميد ابن باديس، مستغانم (الجزائر)boubkeri27@gmail.com

[2] جامعة عبد الحميد ابن باديس، مستغانم (الجزائر)، mr.gouasmi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/01/31 تاريخ القبول: 2022/02/17 تاريخ النشر: 2022/05/05

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على مسألة الحوار الدّيني ودوره في تعزيز التّعايش السلمي بين الأديان، فهو من المفاهيم الأكثر انتشاراً وشيوعاً قديماً وحديثاً، وهذا راجع بالأساس إلى طابعه الحواري المبني على فكرة التّحاور والتّقارب والتّفاهم، هذه السّمة جعلت منه الأساس الذي سعت من خلاله الأديان الى محاولة توصيفه بغية تعزيز التواصل والتعايش، وفي هذه المقالة نحاول تسليط وجهة نظر الباحث والمفكر "محمد الطالبي" من مسألة الحوار الدّيني بين الأديان (اليهودية والمسيحية والإسلام)، وذلك من خلال التركيز على نظرة الإسلام بالتحديد لهذه المسألة وفي تأصيلها ضمن الثقافة العربية الإسلامية وبالتالي التأسيس لثقافة التسامح وتقبل الآخر ونبذ العنف بين مختلف الأديان.

كلمات مفتاحية: الحوار الدّيني، الإسلام، المسيحية، التعايش، التسامح، التبشير.

Abstract This study aims to shed light on the issue of religious dialogue and its role in promoting peaceful coexistence between religions. During which religions try to describe it in order to enhance communication and coexistence, and this study sheds light on the viewpoint of the researcher and thinker "Mohammed Al-Talbi" on the issue of inter-religious dialogue (Judaism, Christianity and Islam), by focusing on Islam's view specifically on this issue and its rooting within the Arab-Islamic culture and thus Establishing a culture of tolerance and acceptance of others and the renunciation of violence between different religions.

Key words: religious dialogue, Islam, Christianity, coexistence, tolerance, evangelization.

* المؤلف المرسل

1- مقدمة:

تعتبر مسألة الحوار الدّيني من أهم المفاهيم الأكثر تداولاً وانتشاراً -في الثقافات الإنسانية عامة والإسلامية على وجه الخصوص- منذ القديم وحتى اللّحظة الرّاهنة، وهذا راجع إلى طابعه الحواري المبني على فكرة التّحاور والتّقارب والتّفاهم، بيد أنّ الوقوف عند ضبط مدلولاته نجد أنّها متباينة ومختلفة، وهذا راجع بالأساس إلى اختلاف وجهات النّظر للخطابات السائدة، فهناك ما هو متعلق بالجانب العقائدي وهناك ما هو متعلق بجانب الحوار بين الأديان المرتبط بالواقع وذلك وفق المتطلبات والمستجدات المعاصرة.

في خضم هذه الاختلافات تأتي قراءة المفكر التّونسي محمد الطالبي لمسالة الحوار الديني بين الأديان وذلك من خلال التأسيس لثقافة التّسامح بين الأديان الثلاث الإسلامية واليهودية والمسيحية، وبالتحديد دلالات الحوار الديني داخل الثقافة الإسلامية وكيف أُسّس لها وبالتالي التأسيس لفكرة تقبل الآخر ونبذ العنف مع مختلف الأديان، وهذا ما يدفعنا للتساؤل: ما مدلول الحوار الدّيني في فكر محمد الطالبي؟ وكيف أصلّ له داخل الثقافة العربية الإسلامية، هذا ما سنحاول معالجته ضمن ثنايا هذا المقال

2. دلالات الحوار الديني:

الحوار الدّيني قد عرّفه البعض بأنّه هو ((أن يتبادل المتحاورون من أهل الدّيانتين الأفكار والحقائق والمعلومات والخبرات، التي تزيد من معرفة كل فريق بالآخر بطريقة موضوعية، تبين ما قد يكون بينهما من تلاقٍ أو اختلاف، مع احتفاظ كل طرف بمعتقداته في جو من الاحترام المتبادل والمعاملة بالتي هي أحسن، بعيدا عن نوازع الشك والتجريح، بل ما يرجى منه هو إشاعة المودة وروح المسالمة والتعاون فيما يقع التوافق فيه من أعمال النفع العام للبشرية)).[1]

ومعنى ذلك أنّ الحوار الدّيني هو ذلك الذي يجري بين ديانتين متباينتين، بقصد الفهم المتبادل والإفادة والاستفادة وتجاوز الجهل بالآخر، وهذا ما من شأنه أن يزيد الرؤية وضوحاً والفهم اتساعاً، كما يؤكد على منطلقات الحوار الأساسية الواجب التّحلي بها، وعلى أهداف الحوار الدّيني.

وهناك مدلول آخر للحوار الدّيني يركز على الجانب الدّاخلي وعلى الحريات الفردية والجماعية والذي يرى أنّ الحوار الدّيني هو ((مجمل العلاقات بين الأديان الإيجابية والبناء مع أفراد أو جماعات العقائد، بغية مزيد من التّعارف والإثراء مع الطاعة الكاملة للحقيقة واحترام حرية كل فرد)).[2]

ويذهب الباحث "عبد الحليم آيت امجوض" من خلال مؤلفه "حوار الأديان" إلى ايراد مدلول يبدو

أكثر ملائمة مع التّعاريف السّابقة إذ يقول ((المراد بحوار الأديان جميع الحوارات التي تجري بين معتنقي أديان مختلفة، أفراداً أو جماعات، شفوية كانت أو مكتوبة أو مرقونة، رسمية كانت أو أهلية، عامة كانت أو خاصة عقدية كانت أو واقعية))[3].

فهذا المدلول سيحيلنا إلى التّعريف الواقعي المعاصر لحوار الأديان الذي يحتل مكانة متميزة اليوم. فالأمر عائد بالأساس لارتباطه الوثيق بالواقع واتصاله بحركة التّعايش بين معتنقي الأديان المختلفة في الوطن الواحد أو في العالم كلّه ((لذلك تدخل فيه مُدارسة كافة القضايا المتعلقة بالواقع المشترك بين الأديان، سواء محلياً أو وطنياً أو دولياً، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وأمنيا، كقضايا الأقليات وحقوق الإنسان والسلم العالمي وغيرها)).[4]

3-الحوار الديني في الدّيانات التوحيدية

وإذا ما حاولنا الوقوف عند مدلولات وحركية الحوار الدّيني في تصور الدّيانات التّوحيدية الثّلاثة، فإننا سنجد هناك تمايزاً من حيث المواقف والإجراءات، ففي الدّيانة اليهودية نستطيع القول بأن اليهود ((وبحكم ما آلت إليه ديانتهم، لم تعد دعوة ولا تبشير بديانتهم، ولا يضعون في مخططاتهم وبرامجهم هدف التأثير على العالم لأجل إدخاله في اليهودية، وهو أمر ناتج عن اعتقادهم بأن اليهودية دم مقدس، وشرف رفيع لا يستحقه من لم يكن من سلالة يهود العرقية، هذا فضلا عن معتقداتهم العنصرية الاقصائية المبنية على مقولة "شعب الله المختار"، ولهذا يصعب تصور نشأة حوار واقعي جدي بقصد التّعايش من جانبهم في نطاق سيادتهم)).[5]

أمّا بالنّسبة للدّيانة المسيحية، فلقد كان موقفها متباينا من نصب العداء للإسلام والتّنكيل به، إلى فتح أبواب الحوار والنّقاش معه، فقد شهدت الانطلاقة الرّسمية لمسألة الحوار إثر المجمع الفاتيكاني الثّاني (1959-1965) للكنيسة الكاثوليكية، بإشراف البابا "بول السادس Paul VI" الذي تعرض إلى قضية خلاص غير المسيحيين وقد أصدر هذا المجمع وثيقة حول "علاقة الكنيسة بالدّيانات غير المسيحية" (Nostra Aetate) نظر فيها إلى بقية الأديان نظرة تسمو عن الاتهامات بالهرطقة لأول مرة، ودعا إلى احترام كل الأديان مما شكّل انقلاباً في موقف شبيه بالانقلاب الكوبرنيكي.

وقد جاء في تلك الوثيقة التّصريح بشأن الإسلام ما يلي ((إنّ الكنيسة تنظر بعين الاعتبار أيضاً إلى المسلمين الذين يعبدون الإله الواحد الحي القيوم الرّحيم القادر على كل شيء، خالق السماء والأرض ومكلم البشر، الذين يجتهدون ليخضعوا بكليتهم حتى لأوامر الله الخفية، كما خضع له إبراهيم، الذي

يسند إليه بطيبة خاطر الإيمان الإسلامي، وإنهم يجلون يسوع كنبي وإن لم يعترفوا به كإله، ويكرمون أمه مريم العذراء كما انّهم بتقوى يتضرعون إليها أحياناً، علاوة على ذلك فإنهم ينتظرون يوم الدّين عندما يثبت الله كل البشر سيما بالصلاة والزكاة والصوم، وإذا كانت قد نشأت على مر القرون منازعات وعداوات كثيرة بين المسيحيين والمسلمين، فالمجمع المقدس يحض الجميع على نسيان الماضي والانصراف بإخلاص إلى التّفاهم المتبادل، وأن يصونوا معاً العدالة الاجتماعية والخيور الأخلاقية والسّلام والحرية لفائدة جميع النّاس)).[6]

إنّ هذا التّصريح من طرف المجمع الفاتيكاني الثّاني، هو بمثابة انقلاب ومراجعة لمسألة الأديان والبحث في إمكانية الحوار والنّقاش معها، وهذا الانقلاب مردّه إلى جملة من العوامل لعلّ من أبرزها:

-ما مارسه بعض المسيحيين الأكاديميين بكتاباتهم من ضغط على الكنيسة دفع بها إلى مراجعة مواقفها، ومن أبرزهم "لويس ماسينيون Louis Massignon" (1883-1962) فيما يتعلق بالإسلام.

-سعي الكنيسة إلى تأكيد التّسامح تأثراً بأفكار الحداثة، وإلى إحلال السّلم بين الأديان مساهمة في ترسيخ هاجس السّلم العالمي الذي فرضته الحرب العالمية الأولى والثّانية وغذّته الحرب الباردة.

-الحيلولة دون خطر الشّيوعية بالانفتاح على شعوب العالم الثّالث وتأكيد التّعاون بين الأديان صداً لخطر الإلحاد.

لقد قابل المسلمون ذلك التّصريح بارتياح كبير، وانخرط عدد كبير منهم عملياً في الحوار الدّيني ويعتبر محمد الطّالبي أحد أبرز المهتمين بهذه المسألة والذي سنهتم بمساهمته في ذلك الحوار ومدى تجديد الفكر الإسلامي عنده ارتباطاً بهذه القضية، سيّما وهو الحائز على "جائزة هيروشيما للسّلام 1995، وجائزة جيوفاني انجلي Giovani Angelli للحوار بتاريخ 4 جوان 1997".[7]

غير أنّه وجب الوقوف عند تصور المسلمين لمدلول الحوار الدّيني الذي لطالما حثّ على الحوار بين الأديان وعلى الإقرار والاعتراف بها، وهذا ما دلت عليه آيات كثيرة* وردت في القرآن الكريم، فهذه الآيات تكرّس للحوار الدّيني التي منها يستمد شرعيته، ومنها يحث المسلمين على التّحاور بين أهل الدّيانات الأخرى، وبخاصة أهل الكتاب منهم.

ولهذا فإنّنا نجد مسألة الحوار متجلّية في جميع الدّيانات التّوحيدية على اختلافها، فاللّه سبحانه وتعالى يخاطب الناس جميعاً على اختلاف تمذهباتهم واختلافاتهم، وفي هذا يقول الطّالبي ((فما دام أن الله يخاطب النّاس فكيف لا نحاور جميع الناس؟! الله يحب كل خلقه ويحب لهم الخير والهداية والسعادة، ومهما كانت الاختلافات بيننا وبين أهل الكتاب عميقة جذرية وغير قابلة للتّفاوض والتّجاوز،

فإن المقام المشترك الذي يجمعنا في الإيمان بالله وباليوم الآخر أساسي، وحب الخير والغير يؤهلنا في كثير من الميادين أن نتحدث لغة واحدة، فيجب أن يصغي بعضنا إلى بعض ولا يتم ذلك إلاّ بالحوار)).[8]

وتجدر الإشارة إلى أنّ الفكر الإسلامي القديم لم يصغ علاقته بالأديان الأخرى على أساس الحوار وإنّما على أساس الجدل ويتمثل في مناظرة أهل الدّيانات الأخرى بغرض بيان تهافت مقالاتهم والطعن في نصوصهم الدّينية سيما أهل الكتاب، ويدخل الجدل عامة في باب علم التّوحيد، وقد غذّت ذلك الجدل نزعة نشر الإسلام على الأرض كافة وطبيعة تصور المؤمن لدينه ووظيفته في خدمة ذلك الدّين، فهل تمكّنَ الطالبي من القطع مع الفكر الإسلامي قديماً؟ وما هي أهم القضايا التي يثيرها مفهوم الحوار الدّيني عنده؟.

4- الطالبي ومسألة الحوار الديني

لقد اهتم الطالبي بالحوار الدّيني اهتماماً شديداً، فخصّه بمؤلفه البكر "الإسلام والحوار" سنة 1972 (Islam Et Dialogue) وما فتئ يساهم في النّدوات المنعقدة حوله، أو الدّوريات التي تعنى به، بل ندر أن نعثر على حوار من حواراته، أو مقال أو مؤلف من مؤلفاته، لا يثير قضية الحوار بين الأديان إثارة متعجلة كانت أو عميقة وقد خصص الطّالبي لتلك القضية ما يقارب الثّلاثين مقالاً وحواراً، وخصها بكتابين الأول "الإسلام والحوار Islam Et Dialogue" سنة 1972م والثّاني "الإصرار على الاحترام Respect Têtu" سنة 1998م، فما هو مفهومه للحوار الدّيني؟ وكيف أسّس لذلك المفهوم؟.

يقدّم الطالبي تعريفات عديدة للحوار الدّيني تدور كلّها حول الاعتراف بالاختلاف وتثمّنه، نورد منها هذا التّعريف القائل أنّ ((الحوار هو شكل من أشكال الإصغاء المتبادل –دون تكتيك ولا استراتيجية ودون قيود فكرية- هدفه الأساسي التّعرف المباشر إلى الآخر في جو من التّعاطف القائم على الثّقة ومن الانفتاح بغاية استجلاء إمكانيات العمل المشترك عند الاقتضاء، فالحوار ليس وسيلة وإنّما غاية في ذاته))[9]، فالحوار عنده دوافع وشُروط وأهداف لا نرى بُداً من الإشارة إليها حتى يمكن لنا الإحاطة بهذا الغرض.

فالأسباب الدّافعة يمكن حصرها في سببين اثنين، يتمثل الأول في ما يفرضه العصر من انفتاح على الآخر أيا كان بحكم ثورة الاتصالات الحديثة وعولمة الثّقافة، وبتعبير الطالبي ((إلى ما تفرضه النّزعة الإنسانية القيمية الحديثة من تأكيد على التّسامح تبعاً لتأكيدها على كرامة الفرد وحرمة المعتقد))[10].

ويعود السّبب الثّاني إلى إلجاء الحضارة المادية وحظر الإلحاد المتدينين إلى التّضامن فيما بينهم ((فلم

يعد التّعارض قائماً حول مفهوم اللّه ومفهوم الايمان بل ظهر انقسام عميق بين الذّين يريدون صُنع مصير الانسان بمعزل عن اللّه والذين لا يستطيعون صنعه إلاّ بالله وفي الله))[11].

ويحصر الطّالبي شروط إنجاز مثل ذلك الحوار في "تجاوز الجدل العقيم والكفّ عن الطّعن في عقائد الغير والإقرار بتعدد طرق الخلاص وتجديد اللاّهوت تجديداً يؤسس للتّسامح والكف عن التّبشير"[12]، وبهذا يمكن اعتبار موقفه هذا انقلاباً في الفكر الإسلامي التّقليدي القائم على الحجاج وتكفير المخالف والطعن على غير المسلم ووسم نصوصه بالتّحريف والفساد، إذ يرى في ذلك الطالبي أنّ ((روح الجدل قد تتسبب في العصر الوسيط في الخراب المادي والفكري والأخلاقي (...) علينا أن نحرص على إخماد جذوة هذا الجدل))[13].

أمّا فيما يخص أهداف الحوار فإنّ الطالبي يشدّد على أنّ الحوار هدف في حدّ ذاته، ولا شك أنّ ذلك لا يعني عنده أنّ الحوار مجرد حوار وإنّما أفصح عن المراد من الحوار في كتابه "الإسلام والحوار" فحصره في تحقيق المعرفة بالآخر وتبادل الأفكار والخبرات ومجابهة الأسئلة الكونية معاً وإرساء السّلام في الأرض ودفع المؤمن إلى تجديد فهمه لعقيدته، وبالتّالي فالحوار عنده لم يعد يعني التّبشير أو تحريف الآخر عن دينه، بل أصبح ((يقوم على قاعدة قبول واحترام الغير كما هو وكما يريد أن يكون، مشروع جديد وليد عصر جديد، وعقليات جديدة، وعلاقات حديثة بين الدّول والشّعوب على أساس قبول التعدّدية))[14]، ولعلّ هذا التصور نفسه نجده عند "علي أومليل" الذي حددّ من خلاله مدلول التّسامح بقوله أنّه ((قبول الاختلاف))[15].

وهكذا يبدو الطالبي جريئاً على قلب ما استقر في الضّمير العقدي والشّعبي على حد السّواء من رمي غير المسلمين بالزّيغ والتّحريف في أحسن الحالات، والكفر في حالات كثيرة، بل أنّه بوصف النّوي ((يتخطى حواجز نفسية ثقافية وتاريخية شديدة الكثافة لعلّ أهمها اقتران المسيحية في المخيال الإسلامي بالحروب الصليبية في العصر الوسيط والاستعمار في العصر الحديث))[16].

وبالتّالي فما يمكن قوله أنّ الحوار الذي يدعو إليه الطّالبي يقوم على نقض فكرة المؤمن قديماً عن نفسه ودينه وعلى إنتاج حقيقة جديدة ليست هي الحقيقة الدّينية القديمة، فالعالم عنده لم يعد منقسماً إلى مسلم وغير مسلم أو دار الإسلام ودار الحرب، ولم يعد المؤمن في مفهومه مالكاً أوحد للحقيقة هي الدّين الحق الذي لا يُضاهَى وما دونه باطل، بل يخرج المؤمن بدينة من مركزية في النّظر إلى الذّات طالما كانت سمة الشّعور الدّيني إلى موقف نسبي يقر فيه بتعدد الحقيقة. يقول في ذلك الطّالبي ((لقد بنيت كل الأنساق اللاّهوتية القديمة على المسلمة القاضية بشكل أو بآخر بأنّه لا خلاص خارج الكنيسة

(...) ولكن ليس من المستحيل في الإسلام كما في المسيحية وفي كل الأديان الأخرى أن نستنبط اعتماداً على النّصوص وعلى بعض السنّن التيولوجية القديمة تيولوجيا تؤسس لتعدّد طرق الخلاص والنّجاة))[17]. وهذا ما سيدفعنا إلى محاولة الوقوف عند طرق تأسيس هذه التّيولوجيا؟

يؤسّس الطالبي موقفاً من الحوار بالاستناد إلى مرجعية دينية، وأعتبر أنّ النّص القرآني يدعو لذلك وإلى نبذ العنف واحترام المخالف، ومن ثمة السّبيل إلى تعدد طرق النّجاة. فالقرآن من منظوره يعدُّ مرجعاً ممتازاً في القول بالتّسامح واللّين مع غير أهل الملّة، واستدل على ذلك بالآية الكريمة {**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**}. (العنكبوت الآية 46)، فعدّ تلك الآية وشبيهاتها من القرآن جوهره، فلا حرج على المسلم إذن من الحوار بل إنّه بالحوار إنّما يحي سنة قرآنية.

ونجد مقولة التّسامح عنده مرجعها في إقرار القرآن الحرية الدّينية، وإقراره نجاة المؤمن إن لم يكن مسلماً وذلك بنص الآية {**إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**}. (سورة البقرة الآية 62)

ولمّا كان الحوار إقرارا بالاختلاف واحتراماً للمخالف، فإنّ تلك الرُّؤية تنسجم عنده أشدّ الانسجام وإرادة الله كما يعرضها القرآن كقوله تعالى{**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**} (سورة النّحل الآية 93) ومن ثمة ((كان احترام الاختلاف احتراما لإرادة الله في الاختلاف))[18].

فهذه الآيات تستدعي نقيضها وهي الآيات الدّاعية إلى الشّدة على المخالف والطّعن فيه، لذلك نرى الطالبي يحاور آيات السيف قائلاً ((علينا أن نفسر الإرث الأليم لنتجاوزه، فالإسلام في الوعي السائد يظهر على أنّه دين العنف لا دين الحوار وعلينا توضيح الأمر (...) فالقرآن وقد أوحى به زمان معين ومكان وحدد وتلبس بالتاريخ وخضع للملابسات كان عليه أن يتناسق مع ذلك العصر (...) وهكذا توجد آيات عديدة تدعوا إلى الجهاد وتعد الشهداء بالجنة، ويهمنا لأن نبين أن لهذه الآيات قيمة ظرفية مرتبطة أساساً بظروف خاصة تجاوزناها اليوم وهي آيات لا تترجم الرّوح العميقة الدّائمة للرسالة القرآنية، هذه الرّوح التي ترتكز على السّلام))[19]، ومن خلال ذلك انتهى الطالبي إلى حصر مقولة الجهاد في جهاد النّفس نافياً عنه كل ما يتصل "بالعنف المقدس".

إنّ هذا التّصور الذي قدّمه الطالبي يختلف عن التّصور التّقليدي الذي قدّمه السّيوطي لآية السّيف، إذ اعتبر الطّالبي أنّ تلك التّفاسير ناسخة لآيات العفو جميعاً، وقد اتّسم تعامله مع النّص القرآني بالتّأرجح بين اقتطاع آيات واعتبارها جوهر الرّسالة دون ربطها بظروف التّنزيل، وردّ آيات أخرى

بحجة ارتباطها بالعصر الذي قد نزلت فيه، وهكذا تكون لبعض الآيات قيمة مطلقة ولآيات أخرى قيمة ظرفية وتلك ثنائية متجلية في علوم القرآن قديماً من ثنائيات تفسيرية كالمطلق/المقيد أو الخاص/العام، وبهذا يكون منهج الطالبي تقليديا في بنيته أبعد من السّهم الموجّه الذي دعا إليه.

والحال أنّ عدم توظيف الطّالبي للسّهم الموجه في هذا التّصور هو أنّ السّهم الموجه يقوم على تتبع تطور نزول النّص والسير في اتجاهه، وإذا سار في نهجه فإنه سيقوه عكس ذلك، فالقرآن مر من مرحلة الدّعوة السّلمية بمكة وحداثة عهد المسلمين بالمدينة إلى مرحلة الدّعوة إلى الجهاد المسلح التي بلغت ذروتها عام فتح مكة مثلما تشير إلى ذلك آية السّيف وهي من آخر ما نزل من القرآن.

فهذه القراءة تقوم على "التّفنن" في انشاء العلاقة مع النّص المقدس وعلى حاجيات المؤول على خطابه مما جعله يسقط هواجس المعاصرة على القرآن دون مراعات سياقات الخطاب القرآني.

وبالتّالي فوعي الطّالبي بأنّ الحوار الدّيني مشروط بالقول بتعدد طرق النّجاة دفعه إلى تأويل التّصور التّقليدي الرّاسخ في القرآن بأحادية طرق النّجاة كتفسير الآيات التّالية{**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**}(آل عمران الآية 85) والآية {**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**} (آل عمران الآية 19).

فقد لجأ الطّالبي إلى توسيع مفهوم الإسلام لينسجم وما قرره سابقاً وذلك باختزال الإسلام في الإيمان بالله دون أن يشترط توحيداً على حرف ولا تصديقاً بنبوة محمد ولا إيمانا بالقرآن، والطريف أن يُدلف الطالبي إلى ذلك من خلال ما يؤصّل به القرآن لنفسه من أنّه تمام ديانة إبراهيم، يقول الطالبي ((إنّ مهمة محمد تواصل وتيم مهمة إبراهيم ومهمة سابقية ولاحقيه أيضاً إذ {**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**} أي تسليم النّفس بهدوء وثقة بين يدي الله الواحد وهذا هو المعنى الأصلي الأساسي لكلمة الإسلام (...) أنّ يكون المرء مُسلماً معناه أن يؤمن بالإسلام كما عرفناه سابقاً أي أن يؤمن بالله كما آمن إبراهيم))[20].

فهذا التّوسيع يُسهم في ترسيخ الحوار لما يوفره معنى الإسلام ذاك من إيجاد سند "تاريخي" مُشترك بين الأديان التّوحيدية الثّلاثة: الإسلام والمسيحية واليهودية وهو عين ما استند إليه بيان الفاتكان الثّاني، وبذلك تكون القرابة ويسهل حينئذ الحوار بين الإخوة.

إنّ الطالبي إلى جانب القرآن يؤسس للحوار الدّيني ومقولة التّسامح بالاستناد إلى سيرة الرّسول خاصة ما تضمنته الصحيفة من تعاون بين الجماعة المسلمة النّاشئة وأهل الكتاب بالمدينة وعلى التّراث الصوفي، فيشير إلى قول الغزالي بنجاة غير المسلمين في كتابه "فصل التفرقة"[21]، بالإضافة الى ضرورة

القول بتعدد طرق النّجاة فإنّ الحوار مشروط عنده بالكفّ عن التّبشير، نظراً لما يحتوي عليه من ايمان بندّية الأديان بعضها ببعض، والإسلام والمسيحية يسعيان إلى الكونية مما يطرح إشكالية في فهم الحوار واجرائيته والقائمة على أساس الدّعوة لذلك.

إنّ الدعوة كمصطلح في التّصور الإسلامي تعني نشر الدّين، والذي يقابله في المسيحية مصطلح التّبشير، فهذين المصطلحين يطرحان إشكالية علاقة المؤمن بغيره من غير المؤمن، وإشكالية الوفاء لطبيعة الدّيانة، وبالتّالي فالجدال الحاصل قديماً كان في أساسه من باب التّبشير أو الدّعوة، ((فالتبشير في المسيحية والدّعوة في الإسلام ينطويان في الأساس على احتكار الآخر لذلك يبدوان نقيضين للحوار))[22]، فكيف نظر الطالبي لهذا الإشكال؟

يشترط الطّالبي لقبول سعي الكنيسة الكاثوليكية إلى تحقيق التّقارب مع المسلمين أن لا تغلف تلك الدّعوةُ نزعة متخفية هي اختراق صفوف المسلمين للتّبشير بينهم، وهو ما يسميه ب "الحوار-الشّص Dialogue-hameçons"[23] في كتابه "الإصرار على الاحترام" (**Respect têtu**) وهو نفس ما عبّر عنه منذ مؤلفه المبكر "الإسلام والحوار"، يقول في ذلك ((إذا فهمنا الحوار على أنّه منهج جديد لنشر الدّيانات وطريقة لاستئصال عقائد الغير فإننّا سنجد أنفسنا في الموقف نفسه الذي وقفه أسلافنا في القرون الوسطى))[24].

إنّ الطّالبي قد وعى تفوق الغرب المسيحي وحركيته وغناه الفكري والمادي في مقابل جمود الفكر الإسلامي وفقره، واعتبر أنّ المسيحية تمتلك عوامل النّجاح في اجتذاب النّاس، مما جعله يصرُّ على طرح قضيّة التّبشير المسيحي والتّنديد بممارسات الكنيسة التّبشيرية في العالم الإسلامي خصوصاً الإفريقي منه.

غير أنّ إيمانه بعالمية الإسلام حالت دونه وسحْب ذلك على المسلمين، بل إنّه يدافع عن ضرورة تبليغ العقيدة معتمداً على حجتين: تتمثل الأولى في القول بأنّ الدّعوة لا تناقض حرية التدّين (("دعا" لا يعني "بشّر" وإنّما "استدعى" والدّعوة استدعاء، نداء نوجهه والقرآن مأدبة الله كما يقر الحديث النّبوي، وإذا ما استدعينا النّاس جميعهم فإنّ كل واحد منهم يظل حراً في قبول الدّعوة أو رفضها (...) فالحرية لا تمنع من تبليغ الرّسالة ولا تناقضها وإنّما المحدد في ذلك طريقة تبليغ العقيدة))[25].

أمّا الحجة الثّانية فهي "اعتباره تبليع العقيدة علامة محبّة للآخر، وسعياً إلى الإجابة عن أسئلة عوضاً عن اللاّمبالاة والحياد البارد"[26]، فهذا التّبليغ وتلك الدّعوة ماهي إلاّ التّقيد بأمر القرآن والقيام بالوظيفة التي ينيطها بالمسلم التي ليست سوى وظيفة الشّهادة، التي نلمسها في الآية الكريمة {**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ**

أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} الآية 143 من سورة البقرة.

إنّ الطالبي في تأسيسه للحوار أو التّشريع للدّعوة يبدو متأسّياً بالتّعاليم القرآنية، ولكن من جانب آخر ألا يمكن اعتبار فكر الحوار نقيض فكر الدّعوة؟ إذ إنّ الأول إصغاء متبادل والثاني إصغاء إلى الذات.

لقد شعر الطّالبي بذلك التّناقض ومن ثمة عمل على تجاوزه بحيلة كيّسة قوامها الفصل بين المجالين، وأورد ذلك من خلال مؤلفه "عيال الله" يقول في ذلك ((واضح أنّنا لا نريد ولا نقبل أن ينقلب الحوار إلى مُساجلات وإلى حرب أو إلى شراك، ولا مناص من ذلك إذا ما دفعنا به في متاهات التّبشير أو الدّعوة على السّواء (...) التّبشير والدّعوة شيء والحوار شيء آخر))[27].

وكذلك تجاوزها أيضا بدعوة قوامها التّفكير في استنشاء وسائل حديثة لا تسيء إلى المخالف، وهو ما عبّر عنه بقوله ((علينا أن نبتكر أدبيات جديدة للتّبشير والدّعوة تتلائم مع عصرنا وحساسياتنا، وقد حان الوقت المناسب ليفكر المسلمون والمسيحيون في ذلك معاً عوض طريقة تبادل التّهم العقيمة))[28].

والحقيقة أنّ التبشير أو الدّعوة شيء والحوار شيء آخر، إذ لا مجال للفصل بينهما ((فليست الدّعوة شيء والحوار شيء آخر))[29] بل هي نقيض الحوار حتماً وذلك لما يتضمنه فعل الدّعوة أو التّبشير في ذاته من تعال مردّه التّسليم باستقامة الذّات أو المبشِّر، وزيغ الآخر أو المبشَّر وما ينطوي عليه من اعتقاد بأفضلية الدّين المبشَّر، وهذا ما ينتج عنه استحالة تضايف فعليْ الحوار والتبشير إذ يلغي أحدهما الآخر.

وعليه فإنّ الطالبي بتركيزه على إشكاليات الحوار يوقفنا على مدى التّمزق العميق الذي أصاب الضّمير الدّيني الحديث بين المرجع العلماني القائم على قيم الاختلاف والمرجع الدّيني القائم على المطابقة بين الدّين والعالم، وهو تمزق لمسناه بوضوح في تردّد الطّالبي بين قبول التّبشير أو ردّه أو الالتجاء إلى فصله عن الحوار.

وبالتّالي من خلال ما تقدّم يمكن القول أنّ الطالبي قد تمكن من القطع مع الفكر التّقليدي القديم القائم على الجدل، خصوصاً وقد أكّد تعدد طرق النّجاة ووسع مفهوم الإيمان، فالقول بالحوار الدّيني والتأكيد على قيمة التّسامح يُعدّ جديداً على الفكر الإسلامي مُقارنة بعصر النّهضة إذ لم ير المصلحون المسلمون كالأفغاني ورشيد رضا في مقولة التّسامح سوى شعارا يستهدف تفكيك المجتمعات الإسلامية لتسهيل اختراقها من قبل المستعمر المسيحي، فالاستعمار لعب دوراً مهماً في طبيعة تقلبهم لمقولة التّسامح.

بيد أنّه لا يمكن القول أنّ الطالبي قد تفرّد بالقول بالحوار الدّيني بل وجب التّنويه إلى نقطتين مهمتين أولهما: أنّ جهود الطالبي تنخرط في سياق تفاعل ثلة من المفكرين المسلمين المعاصرين مع إعلان الفاتيكان الثّاني، وقبول دعوته إلى الحوار ولعلّ من أبرزهم "سيد حسين نصر" و"إسماعيل الفاروقي"

وغيرهم[30]، وثانيهما: أنّ رؤية الطالبي ورؤية غيره لا تمثل سبقاً في الفكر الإسلامي الحديث إذ يمكن اعتبار "عبد العزيز الثّعالبي" أول المفكرين المسلمين الذين نادوا بالتّسامح وأسسوا لاحترام عقيدة الغير، وذلك في كتابه (روح التّحرر في القرآن)[31]. فعدّت قراءته قراءة عميقة في مؤلفه ذاك وتبيّن أنّ الثّعالبي يعني بالتّحرر الدّعوة إلى "التّسامح".

يقول في ذلك الثّعالبي ((إنّ ما درسناه وتعمقنا فيه يمثّل في العلاقات التي يفرضها القرآن على المسلمين تجاه متبعي كل الدّيانات الأخرى، فهذه العلاقات ينبغي أن تكون علاقات ودّية تحدوها روح الصدق والثّقة والمودّة وينبغي أن يسودها التّسامح الدّيني والحرية واحترام رأي الغير))[32]، فهذه الرّؤية تبدي لنا مدى التّماثل بين تصور الطالبي والثّعالبي في التّأسيس للتّسامح الدّيني اعتماداً على القرآن ونبذ الجهاد.

تأسيساً على ما تقدّم يعتبر الطالبي متميزاً في دعوته الملحّة إلى الحوار الدّيني والتّأسيس له، وخير دليل على ذلك إنتاجاته الغزيرة في هذا المجال، مما يجعلنا نقر بأنّ قضية الحوار الدّيني قد أخذت مركزية في خطاباته.

5. خاتمة

في نهاية هذا المقال يمكن القول أنّ مدلول الحوار الدّيني بالنسبة للطالبي قد أصل له من داخل ثقافته الإسلامية التي تكرس وتدعو لذلك، ومن ثمة كان الحوار قائماً على أساس الإصغاء المتبادل، وهذا الحوار ما كان له أن يقوم لولا عاملين أو سببين، الأول منهما هو عامل الحداثة وما فرضته من انفتاح على الآخر، والثّاني عامل إلجاء الحضارة المادية وحظر الإلحاد المتدينين إلى التّضامن فيما بينهم، وهذا الحوار بالنسبة للطالبي لا يمكنه أن يقوم إلاّ بتجاوز الجدل العقيم والكف عن الطعن في عقائد الغير، وبذلك فقد فارق التّصور التقليدي القديم القائم على الحجاج والجدل وأسس موقفاً مخالفاً للتصور الذي كان سائداً في الفكر الإسلامي القديم.

وعليه فالحوار الديني غايته الأسمى والأساسية تتمثل في تحقيق المعرفة بالآخر وتبادل الأفكار والخبرات ومجابهة الأسئلة الكونية وإرساء السلام في الأرض وبالتالي هذا الاعتقاد يدفع المؤمنين الى تجديد عقيدتهم والتأسيس بذلك لثقافة التعايش والحوار مع الآخر.

إن هذا التّصور الذي قدّمه الطالبي حول مدلول الحوار يمكن أن يعتبر تصوراً مثالياً بعيداً عن الواقع، فتصور الطالبي كان قائما على ما يجب أن يكون عليه الفكر الإسلامي الذي اعتبر أن هذه الخطابات مفتقدة فيه وذلك كمحاولة منه لإرساء ثقافة الحوار من الداخل إلى الخارج، ومن ثمة

التأسيس لثقافة التسامح بين الأديان، وهو ما لمسناه في كتاباته المتأخرة إذ اقتنع الطالبي أنّ الحوار الديني وخاصه بين طرفي –الإسلام والمسيحية- لا يمكن أن يستقيم بين الدّيانتين وأرجع ذلك لأسباب عديدة منها أنّه اعتبر أن الغاية من الحوار هي التبشير بالمسيحية وكذا تعمد المسيحيين الطعن في الإسلام وأكبر عامل نظرة الغرب للإسلام الدونية وسلبه لخيرات البلدان الإسلامية.

6.الهوامش:

[1] - يوسف الحسن، **الحوار الإسلامي الفرص والتحديات**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1997، ص 13.

[2] - زينب عبد العزيز، **الفاتيكان والإسلام**، القدس للنشر والإعلان والتسويق، القاهرة، ط1، 2001، ص 130.

[3] - عبد الحليم آيت أمجوض، **حوار الأديان نشأته وأصوله وتطوره**، دار الأمان للنشر والتوزيع ودار ابن حزم، الرباط وبيروت، ط1، 2012، ص 78.

[4] - المرجع نفسه، ص ص 103 104.

[5] - عبد الحليم آيت أمجوض، **حوار الأديان نشأته وأصوله وتطوره**، مرجع سابق ، ص 113.

[6] - ألكسي جورافسكي، **الإسلام والمسيحية**، تعريب خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة، عدد 15، الكويت، نوفمبر 1996، ص 13.

[7] - محمد النوي، **محمد الطالبي وقضايا تجديد الفكر الإسلامي**، مكتبة علاء الدّين، صفاقس، تونس، ط1، 2016، ص 127.

[*] ـ {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}. (سورة النحل، الآية: 125)

ـ {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}. (سورة العنكبوت: الآية: 46)

ـ {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}. (سورة آل عمران: الآية: 64).

[8] - الطالبي محمد، **عيال الله**، دار سراس، تونس، 1992، ص 154.

[9] - M.Talbi :**Respect têtu** (en collaboration avec Oliver Clément),ed, nouvelle cité, Paris 1989, p 96.

[10] - Ibid, p 93.

[11] - M.Talbi : **Islam et dialogue**, Réflexions sur un thème d'actualité, maison tunisienne de l'édition, 1972, p20.

[12] - Ibid, p 18.

[13] - Ibid, p 19.

14 - الطالبي محمد، عيال الله، مرجع سابق، ص 180.

15 - علي أومليل، الإصلاحيّة العربيّة والدولة الوطنيّة، الدار البيضاء، دار التنوير، 1985، ص 114.

16 - محمد النوي، محمد الطالبي وقضايا تجديد الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص 129.

[17] - M.Talbi : **Islam et dialogue**, p25.

[18] - Ibid, p 48

[19] - M.Talbi : **Islam et dialogue**, pp 9-10.

[20] - M.Talbi, Foi d abraham et Foi islamique, dans lslamo-christiana, n5, rome 1979, pp 2-5.

[21] - M.Talbi, **Islam et dialogue**, pp 25-26.

22 - محمد النوي، محمد الطالبي وقضايا تجديد الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص 133.

[23] - M.Talbi , **Respect têtu**, p94.

[24] - M.Talbi , **Islam et dialogue**, p18.

[25] - M.Talbi , Liberté religieuse et transmission de la foi, dans **Islamo-christiana**, N12, Rome 1986, pp 36-37**.**

[26] - Ibid, p 38.

27 - محمد الطالبي، عيال الله، مصدر سابق، ص 159.

[28] - M.Talbi , Liberté religieuse et transmission de la foi, p 45.

29 - محمد النوي، محمد الطالبي وقضايا تجديد الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص 135.

[30] - Etienne Renaud : le dialogue islamo-chretien vu par les musulmans, dans islamo-christiana n23, Rome 1997, pp 111-138.

[31] - Thaalbi Abdelaziz : **l'esprit libéral du Coran**, dans Al-Gharb Al-islami, Beyrouth 1985.

32 - Ibid, p 79.

قائمة المصادر والمراجع

- محمد الطالبي، عيال الله، **أفكار جديدة في علاقة المسلم بنفسه وبالآخرين**، دار سراس، تونس، دط، 1992.

-M.Talbi :**Respect têtu** (en collaboration avec Oliver Clément),ed, nouvelle cité, Paris 1989.

- M.Talbi : **Islam et dialogue**, Réflexions sur un thème d'actualité, maison tunisienne de l'édition, 1972.

- M.Talbi, Foi d abraham et Foi islamique, dans lslamo-christiana, n5, rome 1979.

- يوسف الحسن، **الحوار الإسلامي الفرص والتحديات**، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1997.

- زينب عبد العزيز، **الفاتيكان والإسلام**، القدس للنشر والإعلان والتسويق، القاهرة، ط1، 2001.

- ألكسي جورافسكي، **الإسلام والمسيحية**، تعريب خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة، عدد 15، الكويت، نوفمبر 1996.

- محمد النوي، **محمد الطالبي وقضايا تجديد الفكر الإسلامي**، مكتبة علاء الدّين، صفاقس، تونس، ط1، 2016.

- عبد الحليم آيت أمجوض، **حوار الأديان نشأته وأصوله وتطوره**، دار الأمان للنشر والتوزيع ودار ابن حزم، الرباط وبيروت، ط1، 2012.

- علي أومليل، **الإصلاحيّة العربيّة والدولة الوطنيّة**، دار التنوير ، الدار البيضاء، المغرب، 1985.